العرب
الأربعاء 2021/02/17
السنة 43 العدد 11974

اليمن أرض العجائب كما يقدمه الخطاب الاستعماري

فريا ستارك حوّلها استكشافها لليمن من كاتبة رحالة إلى عنصر استخباراتي

الشـهرة الكبيرة التي اكتسبها اليمن أو البلاد العربية السعيدة منذ القدم جذبت إليه أعـدادا كبيرة من الرحالة الأجانب، فقد كان على مر العصور محط أنظار "الآخر" الأجنبي، سـواء كان مسـتعمرا غازيا أو مستكشفا باحثا أو تاجرا أو سائحا، إذ مثّل الوجهة السحرية للراغبين في الاكتشاف وتجربة عيش المغامرة وتدوينها.

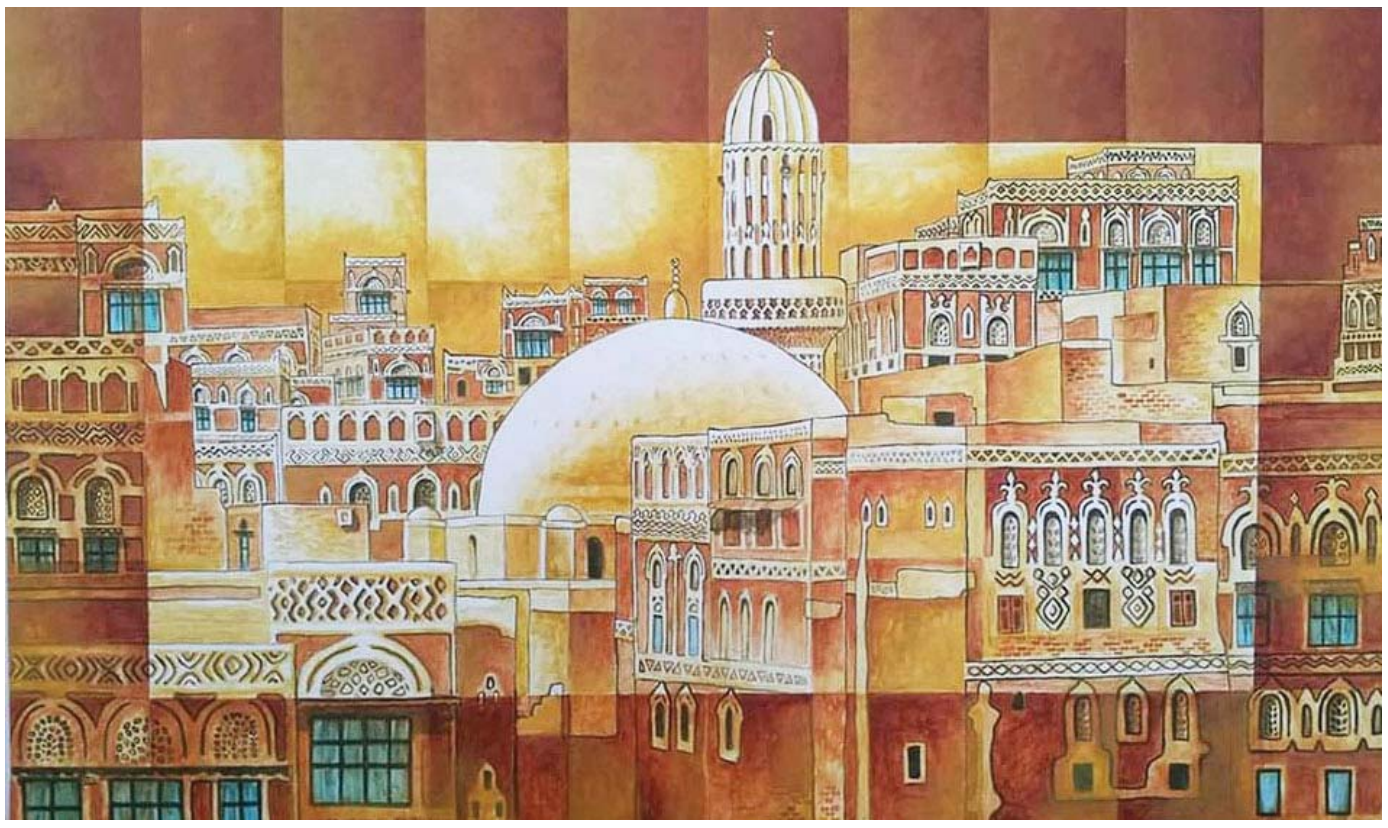

اليمن ماض عريق (لوحة للفنان مظهر نزار)

محمد الحمامصي
كاتب مصري

هنـاك العديد من الكتب والدراسـات التـي ألفها الرحّالة الأجانـب عن اليمن؛ بعضهـم كتب عنه بشـكل عـام واكتفى الآخرون بتناول جزء منه أو إحدى مدنه.

وتشـكل دراسـة أسـتاذ الأدب العام والمقارن بجامعة عدن مسعود عمشوش "اليمـن فـي كتابـات فريا سـتارك.. من الاستكشـافات إلى الاستخبارات" إضافة نوعيـة لقـراءة فـي كتابـات أحـد أبرز الرحالة الغربيين الذين زاروا اليمن خلال النصف الأول من القرن الماضي.

أدب الرحلة واليمن

يرى عمشـوش في كتابه الصادر عن دار عناوين بوكس أن الدوافع التي جذبت الأجانـب ولا تـزال تجذبهم إلـى اليمن كثيرة ومتنوعة. فشـهرة اليمـن بزراعة أشـجار البخـور وتجارته فـي الماضي لفتت انتباه التجـار وكذلك الغزاة الذين حاولوا السـيطرة على إنتاج تلك السلع الثمينـة، التـي ربمـا فاقـت أهميتهـا فـي الماضـي أهميـة البُن فـي القرنين الثامـن عشـر والتاسـع عشـر وأهمية البترول اليوم.

فريا ستارك استطاعت عبر المزج بين السرد والوصف أن تضفي على نصوصها الكثير من عناصر الجمال والتشويق

أما الدافـع الأصلي لأولى المحاولات الغربية لاستكشـاف اليمـن في العصور الحديثـة التـي قامـت بهـا البعثـة الدنماركيـة بقيـادة كارسـتن نيبور في النصـف الثانـي من القرن الثامن عشـر فقد كان لغويـا – دينيا، إذ أوصى العالم اللغوي اليهودي جان – دافيد ميكائيليس ملك الدنمارك باستكشـاف اليمن بغرض جمع المعلومـات اللغويـة والجغرافية التي يمكن أن تساعد على فهم النصوص المقدسة اليهودية والمسيحية.

ويبرز الدافع العسـكري لاستكشاف اليمن واحتلاله في العصور الحديثة منذ نهاية القرن الخامس عشـر حينما حاول البرتغاليون احتلال عدن وميناء الشحر، وكذلـك حيـن حـاول نابليـون بونابرت السـيطرة على مضيق باب المندب أثناء حملتـه على مصر. ومـن المعلوم أنّ تلك المحاولـة هـي التـي دفعـت بريطانيا إلى الإسـراع في احتلال عدن سـنة 1839 وتحويلها إلى قاعدة عسكرية.

ويشـير الباحـث إلـى أن مـن أهـم الأشـكال التي اتخذتهـا رحلات الأجانب إلى اليمـن يمكننا أن نميّز بين شـكلين رئيسـيين منهـا. فمن جهة، هناك شـكل البعثـات الجماعية التـي تنظمها بعض الحكومـات الغربيـة أو المؤسسـات العلميـة، والتي يمكن أن تكون عسـكرية أو سياسـية أو علميـة مثـل البعثـة الدنماركيـة بقيـادة كارسـتن نيبور، أو البعثة النمسـاوية التي أرسلتها جامعة فينّا في نهاية القرن التاسع عشر لدراسة اللغات العربية الجنوبية الحديثة ولهجة حضرمـوت، والتي ضمّت عـددا من كبار المستشرقين والمسـتعربين من مختلف الأقطار الأوروبية.

ومـن جهة أخـرى، ظـل اليمن، على الرغـم مـن وعـورة طرقـه وعـدم توفر وسـائل النقل الحديثـة والمريحة دائما فيـه، من البلدان التي سـعى عـددٌ كبيرٌ مـن الرحالة والمستكشـفين والمخبرين والمغامرين والعسكريين للوصول إليها بشـكل انفرادي، مثل ويلستيد ولاندبيرج وهانس هيلفريتس وفريا ستارك وفيلبي وتيليسـجر وباسكوان وسـيرجانت، أو بشـكل ثنائي مثـل هاليفي وحبشـوش والسـيد والسـيدة بينت وفان دن ميولن وفايسمان وانجرامس وزوجته.

ويؤكـد عمشـوش أن كتابـات كاتبة الرحـلات والمستكشـفة الإنجليزيـة الإيطاليـة فريـا سـتارك حـول اليمـن تكتسب أهمية توثيقية كبيرة، إذ تتضمن معلومات اسـتخباراتية لن نجدها في أي وثيقة تاريخية أخرى، مثل تلك عن جهود البريطانيين بداية الحرب العالمية الثانية في سـبيل تحييد الإمـام يحيى بن حميد الدين وثنيه عن مساندة دول المحور.

كما نعثـر فـي كتاباتها علـى رصد للأحـداث اليومية في عدن خلال السـنة الأولى من الحـرب العالمية الثانية، التي تمَّ خلالها قصف المدينة بشكل عنيف من قبل القواعد الألمانية والإيطالية في القرن الأفريقـي. كما أن الأسـلوب الفريد الذي اسـتخدمته سـتارك في تدوين رحلاتها التي ترجمت إلى معظم اللغات الأوروبية هو الذي جعل كتبها من أروع ما ألف في أدب الرحلات باللغة الإنجليزية، وحفزنا على دراسة كتاباتها عن اليمن. فمن خلال المزج بين السـرد والوصف اسـتطاعت أن تضفـي علـى نصوصهـا الكثيـر من عناصر الجمال والتشـويق والإثارة. كما أن تداخل السـرد مع الرسائل والمذكرات والانطباعـات التـي سـجلتها الرحالـة مباشـرة فـي اليمـن قد أعطى لأسـلوب سـتارك حيوية قلمـا نجدها فـي كتب الرحلات الأخرى.

مهمة استخباراتية

يذكر عمشـوش أن ستارك لتتمكن من جذب أكبر عدد ممكن من القراء وتجسيد الجانب الغرائبي في نصوصها وتقريبه مـن خيـال القـارئ وإقناعـه بصحة ما تنقله من مشـاهد، لم تكتـف بقلمها، بل اسـتخدمت كذلك آلة التصوير. فهي قبل رحلتهـا الأولى إلى اليمن قامت بشـراء Leicalll التقطت بها نحو 6000 صورة.

وقد ضمنت ستارك كل واحد من كتبها الثلاثة الأولى حـول اليمن عددا محدودا من الصور. أما الكتاب الرابع "مشاهد من حضرموت" الذي أرادت، هي وناشـرها، أن يكون هدية للقارئ، فقد كرسته لتقديم عدد كبير مـن الصور التقطـت معظمها أثنـاء زيارتهـا الثانية إلـى حضرموت حينمـا اشـتركت فـي بعثـة تنقيب عن الآثار في معبد القمـر في حريضة برفقة جيرتـرود كاتـون – تومسـون وإلينور جاردنر في شتاء 1937 – 1938.

وفي هـذا الكتـاب نتنـاول الصورة التي رسـمتها سـتارك لليمن في سـتة من مؤلفاتهـا، هي: البوابـات الجنوبية لشـبه الجزيرة العربية، 1936، ومشـاهد مـن حضرموت، 1938، وشـتاء في شـبه الجزيرة العربية،1940، وسـاحل البخور 1953، والشـرق هو الغـرب، 1945، وغبار في مخالب الأسد 1961.

ويحاول عمشوش في الفصل الأول من الكتاب إزاحة النقاب قليلا عن شـخصية ستارك والأسباب التي دفعتها إلى القيام برحلتين استكشـافيتين إلى حضرموت بيـن 1934 و1938، ورحلة اسـتخباراتية طويلة إلـى عدن وصنعاء فـي المدة من 19 ديسـمبر 1939 إلى منتصف أغسطس من عام 1940، ويعرض في الفصل الثاني أبرز الأبعـاد التي ركزت عليهـا الرحالـة الإنجليزية في كتبها تلك عن اليمن.

ويصـب الباحـث جـل اهتمامـه علـى الكيفيـة التي رصدت بهـا الرحالة العادات والتقاليد والحياة اليومية فـي اليمـن ومـدى تأثرها بالغـرب، والصورة التي رسـمتها للإنسـان اليمني بشـكل عام والمرأة اليمنية بشـكل خـاص. ففريا سـتارك، مقارنـة بفان دن ميولـن والرحالـة الغربييـن الآخريـن، استطاعت، لكونها امرأة، أن تقدم صورة أوسع للحياة الاجتماعية في اليمن.

وسـعى المؤلـف أيضـا للكشـف عن أبعـاد الخطـاب الاسـتعماري الذي استخدمته ستارك في رسم صورة اليمن، وذلك من خلال تحديـد نوع العلاقة التي أرادت تلك الرحالة الغربية أن تنسـجها مع سـكان تلك المنطقة العربية الشرقية ومـع السـلطات البريطانيـة وزميلتيها في بعثـة التنقيب عن الآثار في حريضة. أما الفصـل الأخير من الكتـاب فيضمنه الترجمـة الكاملـة لفصليـن مـن كتاب "الشـرق هو الغرب"، تسرد فيهما ستارك المهمـة الاسـتخباراتية التـي أنجزتها فـي عـدن وصنعـاء فـي بدايـة الحرب العالميـة الثانيـة، ولثلاثـة فصـول من كتاب "البوابات الجنوبية لشبه الجزيرة العربية"، تتناول فيها الحياة اليومية في مُدُن سـيؤن وتريم والمكلا، في منتصف الثلاثينات من القرن الماضي.

ويقول عمشوش "في الرحلتين الأولـى والثانيـة كان هدف سـتارك الاستكشاف ومواصلة مـا قامت به في إيران خـلال الأعوام الثلاثة السـابقة التـي قضتهـا في البحث عن خرائب 'لامياسـر' وبعـض 'قـلاع الحشاشـين' الأخرى في إقليم لوريسـتان. ومن المعلـوم أنها قـد جاءت إلى عـدن وحضرمـوت في عام 1934 لكـي تستكشـف مدينـة شبوة القديمة، عاصمة مملكة حضرموت، وتكون أوّل أوروبي يصل إليها. وفي عام 1937 جاءت للتنقيب عـن الآثار، وتحديد مسـار 'طريق البخور' الذي كانت تسلكه القوافـل فـي العصـور القديمـة لنقـل البضائـع من مينا قنـا إلى موانئ البحر المتوسـط. وفـي الواقع، تُعـد إنجازات سـتارك فـي مسـتوى الاستكشـافات متواضعة إذا ما قارناها بإنجازات بعض زملائهـا، مثل هاري سـانت جون فيلبي (المشـهور بالحـاج عبدالله فيلبي)، أو برتـرام توماس. وفي الوقـت الذي كانت هـي تعانـي فيه مـن المرض اسـتطاع منافسـها الألمانـي هانـس هلفريتـس الوصول إلى شبوة القديمة".

ويلفت إلى أن القيمة العلمية لرحلتي سـتارك الأولـى والثانيـة إلـى اليمـن تكمـن فـي الكم الكبيـر مـن المعلومات الأنثروبولوجيـة التـي ضمنتهـا الكتب الأربعة التي سردت فيها هاتين الرحلتين، والتي تعد اليوم من أهم المصادر لدراسة العـادات الاجتماعيـة وواقـع الحيـاة اليومية في حضرموت واليمن بشكل عام في الثلاثينات من القرن الماضي. وسبق أنْ ذكرنا أن ستارك قد ضمنت تلك الكتب عددا كبيرا من الصور التي توثق مظاهر الحياة في اليمن في تلك الفترة، لاسـيما حول المرأة اليمنية.

ويضيف عمشوش أنَّ "الرحلة الثالثة التـي قامت بها سـتارك إلـى اليمن في عامـي 1939 – 1940 تمّت فـي إطار مهمة اسـتخباراتية كلفتها بها حكومة بلادها. فمن المؤكد أنَّ الإحراجات التي سـببتها سـتارك للسـلطات البريطانيـة خـلال رحلتيهـا الاستكشـافيتين فـي اليمن لم تثنِ المؤسسـات الأمنية البريطانية عن توظيف تلك الرحالـة المغامرة، الخبيرة فـي شـؤون العـرب، بهـدف اختـراق المجتمعـات المحلية فـي اليمن وغيره مـن الأقطـار العربية؛ لهذا سـارعت في اسـتدعائها مـن إيطاليـا عنـد انـدلاع الحرب العالمية الثانية في سبتمبر 1939 وأطرتها للعمل في مجال الاستخبارات".

«كتاب الحدوس» لعلي العامري قصائد تحفر في الذاكرة والمستقبل

عمان - أهدى الشـاعر علي العامري مختاراته الشعرية "كتاب الحدوس" إلى أمّه التي وصفها بأنها "حكيمة الفطرة" وأنه تعلم منها معارف من خارج الكتب.

وتضمنت المختـارات، التي صدرت حديثاً عن دار خطوط وظلال للنشـر في عمّان، 44 قصيدة من مجموعات الشاعر الثلاث.

وقال العامري "تعلمت من أمّي كثيراً من المعـارف والجماليات التي لا توجد في الكتب، فهي حكيمة الفطرة التي كنتُ شـاهداً على رعايتها اليومية لأشـجار الزيتـون والطيـور والزهـور فـي حديقة البيـت في قرية القليعـات الأردنية الحدودية مع فلسطين".

وأضـاف "لقـد وُلـدتُ وعشتُ طفولة برّيّة على خطّ الزلازل في وادي الأردن، قريباً من النهر الذي يجمع بين فلسطين والأردن، وفي الوقت نفسه، يشكّل جرحا جغرافياً ظلّ شـاهداً على التاريخ ودم النكبة ومتوالياتها".

إن فكـرة الأمومة هي فكرة شـعرية في الأصل، هي فكرة الروح التي تنفصل في جسـدين، بينهما حبل سريّ والكثير من القصائد. ولابد من أن كل من مسّـه الشـعر، قال قصائد فـي أمه التي أهدت إليه الحيـاة، فامتلأت الكتب والدواوين بقصائـد لا أحلـى ولا أجمـل حول هذا الكائن الذي غلفه الشـعراء بأسـطورية كبيرة.

والأم، الوطن الأول، والحبيبة الأولى والأخيـرة، والجنة عند قدميها، والدواء والطبيب والسـؤال والمجيب، سـمّاها التاريخ بالعديد من الأسماء، كلها تصغر عند لفظة "الأم" التي تفسرها الأعصاب وتحكيها خلايا الجسد ومجرى الدماء.

ويزخـر الأدب العربي بقصائـد كثيـرة قيلت في الأم، فجـل الشـعراء كانوا ومازالوا ينهلون من طيفها نصوصهم.

وقال العامري في حديثه عن تأثير المكان في قصائده "البـراري شـكّلتني بوصفها إحـدى المرجعيـات الأولـى فـي تعميـر الـذات، وصياغة الشغف وتأثيثه بالشعر والرسم والأسـئلة والحريـة، حتى غدت الطبيعة وشـم روحي". وتتنقل الصورة الشـعرية إلـى الوعـي كنتاج مباشـر للقلـب والـروح والوجـود الإنسـاني، حيث تسـتطيع الصورة، وفي وقت غير اعتيـادي أو محـدد، أن تبـدو وكأنهـا تكثيـف للنفـس بكليتهـا، هكـذا نجد أنفسـنا أمـام نصوص العامـري، التي تختزل أزمنة وأمكنة بالتقاطات شـعرية مكثفـة يمكن اعتبار بعضهـا قائما على شعرية المكان.

يقول الناقد الفرنسـي جان ليسكور "الفنان لا يبتدع أسلوب حياته، بل يعيش بالأسلوب الذي يبدِع به. إن المكان الذي ينجـذب نحوه الخيـال لا يمكن أن يبقى مكانًا لامباليًا، ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشـر ليس بشكل موضوعي فقـط، بل بكل ما فـي الخيال من تحيز. إننـا ننجذب نحوه لأنه يكثف الوجود في حدود تتسم بالحماية".

استعادة أم ووطن (لوحة للفنان نبيل عناني)

مما سـبق يمكننـا أن نتلمس ملامح علاقـة العامـري ونصوصـه بالمـكان والأمومـة، وكأنـه يعود إلـى جذور غير مرئيـة فـي مخيلتـه ليحييهـا ويتفقد وهجها الشعري الذي مازال متقدا.

ولا تبقى قصائد العامري حبيسة لما سـماه أمبرتو إيكو «العوالـم المحتملة للنصوص»، بل يعيد مـن خلالها تجديد احتمـالات شـتى، حيث يخـرج بها من دائـرة الزمـن المغلـق والمحـدد، إلى فضـاء زمني مفتوح، تقـوده صورة الأم المتعـددة، الـروح والوطـن والأرض والطفولة والانعتاق، كلها طرق للقصيدة لتحفر بعيدا في الذاكرة وفي المسـتقبل في آن واحد.

جاء "كتاب الحدوس"متضمناً قصائد من المجموعات الثلاث "هذي حدوسي.. هذي يدي المبهمة" الصادرة عن دار آرام للدراسـات والنشـر، في عمّان عام 1993، و"كسوف أبيض" الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسـات والنشـر في بيروت 1997، و"خيـط مسـحور" التـي صدرت طبعتها الأولى عن وزارة الثقافة الأردنية 2012، وطبعتهـا الثانية عن دار فضاءات للنشر في عمّان 2014، كما صدرت طبعتها الإسـبانية عن "بيت الشـعر" في سـان خوسيه عاصمة كوسـتاريكا، عام 2014، بترجمة أستاذة اللغة الإسبانية وآدابها في جامعة القاهـرة، الدكتورة عبير عبد الحافظ.

علي العامري

ولادتي كانت على خط الزلازل في وادي الأردن حيث الطبيعة وشم روحي

وتضمـن الكتاب الذي تصدّرت غلافه لوحة للفنان والشـاعر محمـد العامري، مقتطفات من شـهادات للشعراء والكتّاب والنقاد، زهير أبو شايب، ضياء خضير، خليـل قنديـل، يوسـف عبدالعزيز، عمر شـبانة، حكمـت النوايسـة، وإبراهيـم اليوسف.

يذكـر أن علـي العامـري شـاعر من الأردن، لعائلـة فلسـطينيّة مُهجّـرة من بيسـان فـي العـام 1948، إثـر الاحتلال الإسرائيلي.